الطريقة الفاضلية
وأثرها في بعث الدراسات النقدية

د/ عبد المنعم أحمد يونس

مدرس بقسم الأدب والنقد

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على إمام المرسلين ، وخاتم النبيين ـــ وبعد :

فإن النقد توءم للأدب ، ولصيق به يدرج معه في مدرج واحد ويسيران معاً في طريق واحدة ، فإن كانت الطريق تكتنفها أوعار ، أو تحيط بها حزون فإن تأثير ذلك يعود على الأدب والنقد معاً ، وإن كانت الطريق معبدة مستقيمة رجع أثر ذلك على كليهما ، فارتقت الآداب ، ونشطت الفنون ، وأدى النقد دوره المرجو .

والأدب العربي منذ عصوره الأولى لم يسر في طريق واحدة ، أو بالأحرى لم تكن طريقه معبدة دائما ، وإنما اختلفت أماكنها ، وتباينت أطوارها فهو حينا يتقيد بأغلال لا يستطيع الفكاك منها ، ولا يجد مناصا من الرضوخ لقيودها والسير على نهجها ، وأحياناً أخرى يجد السواعد القوية التي تكسر تلك الأغلال ، وتتغلب على كل العقبات فينهض الأدب ، ويرقى .

ولست الآن أمام تحديد لتلك الأطوار التي مر بها الأدب العربي في عصوره المختلفة ، وأطواره المتباينة ، ولكنني أمام تسجيل لبعض

الأحكام النقدية التى صدرت مقومة للأدب ، هادية للأدباء ؛ كى يتوخوا الطرق السليمة ، ويبتعدوا عن الطرق الملتوية .

ولن أتهم بالطبع كل هذه الأحكام ، وتلك النظريات ، ولكننى سأقف أمام بعض الآراء النقدية التى نشأت إثر ظهور شخصية أدبية أثارت هم النقاد ، وحركت عقول المفكرين ، وكان لها الفضل كله فى قيام حركة نقدية نشطة تلكم هى شخصية القاضى الفاضل التى أحيت — مرة أخرى — الدراسات النقدية بعد أن ظن الجميع أن الخلية قد خلت من الفرسان ، وأن العقم قد سيطر على الأذهان .

فى نهاية العقد الثالث من القرن السادس الهجرى ، وعلى وجه التحديد سنة تسع وعشرين وخمسمائة ولد بمدينة عسقلان إحدى مدن الشام مولود لم يدر الناس ماذا سيخط له القدر ، وما الذى ينتظره من مجد وشهرة ، إنه وليد كسائر الولدان ، ولكنه بز الجميع ، وفاق ترابه ، وتسامعت به الدنيا قاصيها ودانيها إنه « أبو على عبد الرحيم بن القاضى الأشرف بهاء الدين أبى المجد على بن القاضى السعيد أبى محمد محمد بن الحسن بن الحسين بن أحمد بن المفرج بن أحمد اللخمى العسقلانى المولد المصرى المعروف بالقاضى الفاضل الملقب مجير الدين(١) » .

تخرج القاضى الفاضل على أبيه فى علوم اللغة والأدب ، وعلى أعلام زمانه فى مختلف الفنون .

وفى النصف الأخير من القرن السادس الهجرى بدأ نجم القاضى الفاضل فى الصعود ، فقد رحل إلى مصر ، وتقلب فى شتى المناصب إبان الفترة الأخيرة

---

(١) ابن خلكان . وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ج ٢ ص ٣٣٣ . ت / محمد محيى الدين عبد الحميد .

من حكم الفاطميين ، ولما آل لصلاح الدين الأيوبى ملك مصر لم يجد أمامه شخصية متفوقة فى فنون الكتابة إلا القاضى الفاضل فقدمه ، واتخذه وزيراً له ؛ حتى قال عنه ابن خلكان : « كان وزير السلطان الملك الناصر صلاح الدين — رحمه الله تعالى — وتمكن منه غاية التمكن ، وبرز فى صناعة الإنشاء ، وفاق المتقدمين ، وله فيه غرائب من الآثار(١) » .

وكم من الوزراء رحلوا ، وانتهت حياتهم ، ونسيهم الجميع ، وكم من الكتاب برزوا فى الكتابة ، ثم آل أمرهم إلى فناء ، ولكن الأمر الذى خلد به ذكر القاضى الفاضل ، ولم يعف عليه الزمن هو تلك الطريقة التى ابتكرها فى الكتابة ، والتى سار على نهجه فيها معظم كتاب وشعراء عصره والتى عرفت فى تاريخ الأدب العربى باسم الطريقة الفاضلية .

وقد رزقت هذه الطريقة من سعادة الجد ، ووفور الحظ ، وإقبال الناس ما لم ترزقه طريقة من قبل ، فنمت فى مصر نموا سريعاً ، حتى استحوذت على أقلام الكتاب والشعراء ، وصارت شرعة وطريقة ، ثم فاضت على البلاد الإسلامية الأخرى ، فشرقت إلى الشام ، وغربت إلى بلاد الأندلس ، وطغت على طريقة ابن العميد التى سار عليها الناس زمنا ليس باليسير وبقيت هذه الطريقة طابع الكتاب والشعراء ، ولا سيما فى مصر إلى زمن قريب ، وقد كان القاضى الفاضل غزير المادة واسع الأفق ، فساعده ذلك على تلفيق طريقته من طرق أعلام الكتاب فى مصر والشام والعراق . ولا سيما ابن العميد(٢) » .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ج ٢ ص ٣٣٣ . ت / محمد محيى الدين عبد الحميد .

(٢) د / أحمد أحمد موسى . الصيغ البديعى فى اللغة العربية ص ٣٥٥ . دار الكاتب العربى للطباعة والنشر بالقاهرة (١٩٦٦) .

وإذا كان القاضى الفاضل قد أقام طريقته على مورثه من السابقين فإنه قد اتخذ لنفسه خطا آخر مخالفا به طرق السابقين فى الكتابة والشعر ، ذلك الخط هو الإكثار من التورية والجناس ، والتزام السجع الطويل الفقرات فى الكتابة ، ولكن التورية والجناس كان لهما النصيب الأوفى ، حتى تأثر بهما كثير من الشعراء المعاصرين للقاضى الفاضل ، واللاحقين بهم .

يقول ابن حجة الحموى : « قلت ولهذا وقع الإجماع على أن المتأخرين هم الذين سمو إلى أفق التورية ، وأطلعوا شموسها ، ومازجوا بها أهل الذوق السليم لما أداروا كؤوسها ، وقيل إن القاضى الفاضل هو الذى عصر سلافة(١) التورية لأهل عصره ، وتقدم على المتقدمين بما أودع منها فى نظمه ونثره ، فإنه رحمه الله تعالى كشف بعد طول التحجب ستر حجابها ، وأنزل الناس بعد تعهدها بساحتها ورحابها ، وممن شرب من سلافة عصره ، وأخذ منه وانتظم فى سلكه بفرائد دره القاضى السعيد هبة الله ابن ســـناء الملك ؛ ولم يزل هو ومن عاصره مجتمعين عـــلى دور كأسها ، ومتمسكين بطيب أنفاسها إلى أن جاءت بعدهم حلبة صاروا فرسان ميدانها والواسطة فى عقد جمانها »(٢)

---

(١) السلاف : ما سال من عصير العنب قبل أن يعصر . وتسمى الخمر سلافا ، وسلافة كل شىء عصرته .

(٢) ابن حجة الحموى : خزانة الأدب وغاية الأرب ص ٢٩٨ مطبعة بولاق ١٢٧٣ هجرية .

وابن حجة هو تقى الدين أبو بكر على المعروف بابن حجة الحموى المولود فى حماة سنة سبع وستين وسبعمائة ، المتوفى سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة للهجرة .

ولم يسر على طريقة القاضى الفاضل كتاب عصره فحسب ، بل إن الشعراء أيضا خضعوا لهذه الاتجاهات الفنية ، وأصبح الشعر يعتمد على الموسيقى اللفظية فهم يختارون له الألفاظ الضخمة ذات الوقع القوى ، والجرس الموسيقى الذى يؤثر فى السمع مع حلاوة الإيقاع .

والذى يعنينا — هنا — هو تلك الدراسات النقدية التى وقف أصحابها مواقف متباينة إزاء الطريقة الفاضلية ، فمنهم من حط من قدرها ، وحاول التفوق عليها ، ومنهم من أثنى عليها ، ومدح من سار على نهجها .

أول كتاب يطالع الباحث فى ذلك هو كتاب « المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر لمؤلفه نصر الله محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشيبانى الجزرى أبى الفتح ضياء الدين المعروف بابن الأثير المتوفى سنة سبع وثلاثين وستمائة للهجرة »(١)

والقارىء لمقدمة الكتاب يتبين الهدف من تأليفه — وإن كان فى رأيى هدفا عاما — فقد قال فى المقدمة (أما بعد فإن علم البيان لتأليف النظم والنثر بمنزلة أصول الفقه للأحكام ، وأدلة الأحكام ، وقد ألف الناس فيه كتبا ، وجلبوا ذهبا وحطبا ، وما من تأليف إلا وقد تصفحت شينه وسينه وعلمت غثه وسمينه ، فلم أجد ما ينتفع به فى ذلك إلا كتاب الموازنة لأبى القاسم الحسن بن بشر الآمدى ، وكتاب سر الفصاحة لأبى محمد عبد الله بن سنان الخفاجى ، غير أن كتاب الموازنة أجمع أصولا ، وأجدو محصولا ، وكتاب سر الفصاحة ، وإن نبه فيه على نكت مثيرة ، فإنه قد أكثر مما قل به مقدار كتابه من ذكر الأصوات والحروف والكلام عليهما

---

(١) ابن خلكان . وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٢٠ المصدر السابق

(٢) شينه ، وسينه : رديه وجيده .

ومن الكلام على اللفظة المفردة وصفاتها مما لا حاجة إلى أكثره ، ومن الكلام فى مواضع شذ عنه الصواب فيها ، وسير ذلك كله فى مواضع من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى ، على أن كلا الكتابين قد أهملا من هذا العلم أبوابا ولربما ذكرا فى بعض المواضع قشوراً ، وتركا لباباً ، وكنت عثرت على ضروب كثيرة منه فى غضون القرآن الكريم ، ولم أجد أحداً ممن تقدمنى تعرض لذكر شىء منها ، وهى إذا عدت كانت فى هذا العلم بمقدار شطره ، وإذا نظر إلى فوائدها وجدت محتوية عليه بأسره ، وقد أوردتها ها هنا ، وشفعتها بضروب أخرى مدونة فى الكتب المتقدمة بعد أن حذفت منها ما حذفته ، وأضفت إليها ما أضفته ، وهدانى الله تعالى لابتداع أشياء لم تكن من قبلى مبتدعة ، وكل ذلك يظهر عند الوقوف على كتابى هذا(١) .

وفضلا عن إعجاب ابن الأثير بنفسه ، وافتخاره بأنه وفق إلى أشياء لم يوفق إليها الأقدمون ، وأنه رزق موهبة الاجتهاد التى لم يتوصل إليها كثير من الباحثين ، وأن هدفه هو خدمة علم البيان الذى جمع فيه الباحثون الأولون الغث والسمين ، أو كما قال « جمعوا بين شينه وسينه » حتى صاحبى كتاب الموازنة وسر الفصاحة لم يسلما من غمزه ولمزه ، فقد قال عنهما « إنهما ربما ذكرا فى بعض المواضع قشوراً وتركا لبابا ، رغم كل ذلك فان منهجه الذى سلكه فى الكتابة والتحليل يدلنا على أنه أراد بذلك :

أولا : التقليل من شأن الطريقة الفاضلية ، وذلك لأنه نعى على أولئك الذين يتعبدون الألفاظ ، ويتخذون منها أساليب لا حاصل تحتها ، ولا كبير معنى وراءها ، وكذلك معارضته للقاضى الفاضل صاحب الطريقة ، وأنه قد أتى بمعان أجل من معانيه ، وبرسائل أدق من رسائله .

---

(١) ابن الأثير : المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر جـ ١ ص ٣ ت : د. أحمد الحوفى ، د. بدوى طبانة (مكتبة نهضة مصر ومطبعتها سنة ١٩٥٩)

ثانيا : من تقسيم الكتاب نتبين أنه أراد توجيه الشعراء إلى المعانى ؛ فقد قسم الكتاب إلى مقدمة ومقالتين. شغلت وشغلت المقدمة والمقالة الأولى جزءاً واحدا من الكتاب بينما شغلت المقالة الثانية جزءين وبعض الجزء الثالث ، حسب الطبعة المحققة بتحقيق د أحمد الحوفى ، ود بدوى طبانة ، والمذيلة بكتاب الفلك الدائر(١) الذى سنعرض له فيما بعد .

والحقيقة أن بحثه فى المعانى يحتاج إلى وقفة . ذلك لأنه نبه إلى « أن المعانى على ضربين أحدهما يبتدعه مؤلف الكلام من غير أن يقتدى فيه بمن سبقه ، وهذا الضرب ربما يعثر عليه عند الحوادث المتجددة ويتنبه له عند الأمور الطارئة ، ولنشر فى هذا الموضع إلى نبذه ، لتكون مثالا للمتوشح لهذه الصناعة(٢) فمن ذلك ما ورد فى شعر أبى تمام فى وصف مصلبين(٣) .

بكروا وأسروا فى متون ضوامر قيدت لهم من مربط النجار
لا يبرحون ومن رآهم خالهم أبدا على سفر من الأسفار(٤)

فقد جعل أبو تمام تلك الجذوع التى صلبوا عليها بمنزلة الأفراس الضوامر

---

(١) كتاب الفلك الدائر على المثل السائر لمؤلفه : عز الدين عبد الحميد ابن هبة الله بن محمد بن محمد بن الحسين ابن أبى الحديد . ولد فى غزة سنة ٥٨٦ هـ ، وتوفى ببغداد فى جمادى الآخرة سنة ٦٥٦ هـ وكان من أعيان عصره فاضلا بارعا فى علم الكلام على مذهب المعتزلة أديبا جيد النثر والشعر . انظر الجزء الرابع من المثل السائر . المصدر السابق .

(٢) يقصد : المتقلد لصناعة الشعر .

(٣) مصلبين : أى محورا بن على الصلب .

(٤) ديوان أبى تمام بشرح الخطيب التبريزى . تحقيق محمد عبده عزام ط دار المعارف . المجلد الثانى ص ٢٠٨ .

ثم بين أنها ليست أفراساً على الحقيقة : لأنها حملت من حانوت النجار ، فهى أخشاب جيلت لهم للصلب عليها ، وهم قائمون على هذه الصلب سود الوجوه إذا نظرت إليهم حسبتهم مسافرين .

يعلق ابن الأثير على البيتين بقوله « وهذا المعنى مما يعثر عليه عند الحوادث المتجددة ، والخاطر فى مثل هذا المقام ينساق إلى المعنى المخترع من غير كبير كلفة لشاهد الحال الحاضرة »(١) ولا يستحسن ابن الأثير إعجاب العلماء بقول أبى نواس :

تدار علينا الكأس فى عسجدية
حبتها بأنواع التصاوير فارس

فيقول معلقا على ذلك . « وقد أكثر العلماء من وصف هذا المعنى ، وقولهم إنه معنى مبتدع ، ويحكى عن الجاحظ أنه قال : مازال الشعـــراء يتناقلون المعنى قديما وحديثا إلا هذا المعنى ، فإن أبا نواس انفرد بإبداعه ، ولا أعلم أنا ما أقول لهم ولأبى نواس سوى أن أقول : قد تجاوز بهم حد الإكثار ، ومن الأمثال السائرة « بدون هذا يباع الحمار » وفصاحة هـذا الشعر عندى هى الموصوفه ؛ لأن هذا المعنى لا كبير كلفه فيه ، لأن أبانواس رأى كأساً من الذهب ذات تصاوير فحكاها فى شعره (٢) .

فقد عد ابن الأثير إعجاب العلماء ببيت أبى نواس ضربا من الإكثار ، ونعى عليهم هذا العجب فإن أبا نواس فى نظره لم يزد على أن رأى كأساً من الذهب لها تصاوير بديعة فنقل هذه الصورة الواقعية فى شعره .

وابن الأثير بهذا يعطينا تصوراً جديدا للمعنى . وكأنه لا يعتد بأولئك

---

(١) ابن الأثير . المثل السائر حـ ٢ ص ٧ . المصدر السابق .
(٢) ابن الأثير . المثل السائر جـ ٢ ص ١٣ . المصدر السابق .

الشعراء الذين يتخذون من الطبيعة مجالا لشعرهم فهم يرسمونها فقط، وينقلونها للقارىء نقلا كما فعل أبو نواس فى نقله لصورة الكأس ، ولكنه خفى عليه (أى ابن الأثير) أن الشعر لايصور الواقع فقط ، ولكنه يبعث فيه الحركة والحياة .

ولهذا فإننا نرى ابن الأثير يعجب بالمعانى المبتكرة ، والتى لاتصور واقع الحياة ، ولا تنقل صور الطبيعة ، وإنما تستخرج من غير شاهد حال مصورة فيقول : «وأما المعانى التى تستخرج من غير شاهد حال مصورة فإنها أصعب مثالا مما يستخرج بشاهد الحال ، ولأمر ما كان لابكارها(١) سر لايهجم على مكامنه(٢) إلا جنان(٣) الشهم ، ولا يفوز بمحاسبه إلا من دق فهمه ، حتى جل عن دقة الفهم، وللهجوم على عذارى المعانى المحمية بحجب البواتر(٤) أيسر من الهجوم على عذارى المعانى المحمية بحجب الخواطر ، وما ذلك مما يلقيه إليك الأستاذ ، وليس يقوم به إلا الفذ ، ولا أقول الأفذاذ ، وأين الذى ينشىء فيحسن الإنشاء ، ويبرز فيها صوراً يركبها كيف يشاء(٥) » .

فالقارىء لهذه الفقرة يرى أن ابن الأثير قد قسم الضرب الأول من المعانى قسمين :

١ — قسما يكون المعنى فيه مبتكراً متجدداً يهبط على الشاعر عندما يرى منظراً من المناظر التى تهيج خاطره ، وتحرك شعوره ، فيصف هذا المنظر ، ويضيف إليه لوناً جديداً يستحوذ به على سامعيه .

---

(١) الأبكار جمع بكر : يريد المعنى الذى لم يسبق إليه .
(٢) مكامنه : جمع مكمن . اسم مكان . أى مخبأه
(٣) جنان الشهم : قلب الشجاع .
(٤) البواتر : السيوف .
(٥) ابن الأثير : المثل السائر جـ ٢ ص ٢٠ المصدر السابق .

٢ — رقسما يستخرجه الشاعر أو الكاتب من غير شاهد حال ، وهذا المعنى أصعب فى نظره من المعنى الأول الذى يستخرج بشاهد الحال ، ويذكر ابن الأثير مثالا لذلك قول أبى تمام :

لا تنكروا ضربى له من دونه مثلا شرودا فى النـــدا والبـــاس
فالله قد ضرب الأقل لنـــوره مثـــلا من المشكاة والنبراس

يقول الخطيب التبريزى فى شرحه لهذين البيتين : « أى لاتنكروا قولى إقدامه كإقدام عمرو ، وهو أشجع منه ، وذكاؤه كذكاء إياس وهو أذكى منه ؟ لأن الله تعالى قد شبه نوره بما هو أقل منه إذ كان المشبه به من أبلغ ما يعرفه الناس ضوءاً فقال : « مثل نوره كمشكاة » ، وهى الكوة ليست بنافذة » .

« وكان أبو تمام أنشد أحمد بن المعتصم هذه القصيدة وليس فيها البيتان ، أعنى قوله : لاتنكروا والبيت الذى بعده ، فقال يعقوب بن إسحق الكندى ، وكان يخدم أحمد : الأمير أكبر فى كل شىء ممن شبهته به ، فعمـــل هذين البيتين ، وزادهما فى القصيدة من وقته ، فعجب أحمد وجميع من حضره من فطنته وذكائه وأضعف جائزته(١) » :

لقد قال أبو تمام هذا المعنى الذى اخترعه من فوره عندما عيب عليه تشبيه أحمد بن المعتصم ، فجاء آية فى الروعة ، وحسن التخلص ، وسرعة البديـــة .

ولا ينسى ابن الأثير أن يفتخر بنفسه فى هذا المقام ، فبعد أن يذكر المعنى المتقدم يقول « وقد قيل إن أبا تمام أكثر الشعراء المتأخرين ابتداعاً

---

(١) ديوان أبى تمام بشرح الخطيب التبريزى . المجلد الثانى ص ٢٥٠ . المصدر السابق .

للمعانى ، وقد عددت معانيه المبتدعة فوجدت مايزيد على عشرين معنى، وأهل هذه الصناعة يكبرون ذلك، وما هذا من مثل أبى تمام بكبير ، فإنى قد عددت معانى المبتدعة التى وردت فى مكاتباتى فوجدتها أكثر من هذه العدة ، وهى مما لا أنازع فيه ، ولا أدافع عنه »(١) .

هذا هو الضرب الأول من المعانى ، وهو الضرب الذى لايأتيه إلا فحول الشعراء وعظماء الكتاب ، وهذا ماجعل ابن الأثير يتباهى بنفسه ، وأنه اخترع معانى أكثر مما اخترعه أبو تمام .

أما الضرب الثانى فهو الذى يقتدى فيه اللاحقون بالسابقين ، هو الذى يحتذى فيه على مثال سابق ، ومنهج مطروق ، فذلك جل مايستعمله أرباب هذه الصناعة ، ولذلك قال عنترة

هل غادر الشعراء من متردم

إلا أنه لاينبغى أن يرسخ هذا القول فى الأذهان لئلا يؤيس الترقى إلى درجة الاختراع ، بل يعول على القول المطمع فى ذلك ، وهو قول أبى تمام :

لازلت من شكرى فى حـــلة لابسها ذو سلب فاخر
يقول من يقرع أسماعه كم ترك الأول للآخـــر(٢)

ثم يقول : ابن الأثير : « وعلى الحقيقة فإن زوايا الأفكار خبايا ، وفى أبكار الخواطر سبايا ، لكن قد تقاصرت الهمم ، ونكصت العزائم ، وصار قصارى الآخر أن يتبع الأول ، وليته تبعه ولم يقصر عنه تقصيراً فاحشا،(٣)

وكلام ابن الأثير على المعانى يمكن أن نستشف منه دليلا قاطعا على أنه

---

(١) ابن الأثير : المثل السائر جـ ٢ ص ٢٢ المصدر السابق .
(٢) ديوان أبى تمام . المجلد الثانى ص ١٦١ المصدر السابق .
(٣) ابن الأثير : المثل السائر جـ ٢ ص ٥٨ ، ٥٩ المصدر السابق .

كتب هذا الكتاب ؛ ليوجه الشعراء إلى العناية بالمعانى، وعدم التقيد بالألفاظ، أو الاهتمام بها وترك المعانى ، فإن ذلك سيدفع بالشعر إلى قوالب جامدة من الألفاظ ؛ وسيدفع بالشعراء إلى الجمود والاهتمام بالزخارف اللفظية ، والمحسنات البديعية التى جرتها عليهم طريقة القاضى الفاضل .

ويستمر ابن الأثير فى عرض مفصل لكل أنواع المعانى من تشبيه واستعارة وتورية وفى كل لون من هذه الألوان يذكر أمثلة لأجمل الصور التى كونها فحول الشعراء ، ثم يذكر نماذج من تأليفه ، ويحاول المقارنة بينها ، وبين ما كتبه القاضى الفاضل ، ويخلص من المقارنة بتفضيل ما كتبه ، والخض مما كتبه القاضى الفاضل ، ويختم ابن الأثير كتابه بحديث مستفيض عن السرقات الشعرية ؛ حتى يلفت الأنظار إلى ضرورة تجنبها ، ولاينسى أيضاً أن يفرق بين الشعر والنثر ، وأن يبين لنا أن النثر أعظم منزلة ، وأرقى مكانة من الشعر .

ابن الأثير وابن أبى الحديد :

وكما فعل ابن الأثير مع مجهودات العلماء الذين تقدموه من تقليل لشأنهم وحط لقدرهم قام رجل من المعاصرين له وألف كتابا أسماه « الفلك الدائر على المثل السائر » ذلك الرجل هو : عز الدين عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن محمد ابن الحسين بن أبى الحديد المعتزلى الشيعى الفقيه الشاعر ، والذى ولد فى ذى الحجة سنة ست وثمانين وخمسمائة هجرية ، والذى كان من أعيان العلماء الأفاضل بارعا فى علم الكلام على مذهب المعتزلة أديبا جيد الشعر والنثر ، وقد اشتغل ابن أبى الحديد زمنا فى الدواوين السلطانية ، وأدرك إغارة المغول على بغداد، وعلى الرغم من نجاته من المذابح الرهيبة التى قام بها التتار إلا أن أيامه لم تطل، فقد توفى فى جمادى الآخرة سنة ست وخمسين وستمائة للهجرة .

لقد قال ابن الحديد فى مقدمة كتابه : « وبعد . فقد وقفت على كتاب

نصير الدين بن محمد الموصلي المعروف بابن أثير الجزيرة المسمى «كتاب المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر» فوجدت فيه المحمود والمقبول والمردود والمرذول، أما المحمود منه فإنشاؤه وصناعته فإنه لا بأس بذلك إلا في الأقل النادر، وأما المردود فيه فنظره وجدله، واحتجاجه واعتراضه، فإنه لم يأت في ذلك في الأكثر الأغلب بما يلتفت إليه، وبما يعتمد عليه».

«فحداني على تتبعه ومناقضته في هذه المواضع النظرية أمور: منها إزراؤه على الفضلاء، وغضه منهم وعيبه لهم، وطعنه عليهم، وإن في ذلك مايدعو إلى الغيرة عليهم والانتصار لهم، ومنها إفراطه في الإعجاب بنفسه والتبجح برأيه والتقريظ لمعرفته وصناعته، وهذا عيب قبيح يحبط عمل الإنسان والاجتهاد، ويوجب المقت من الله والعباد» (١).

ولن يستطيع باحث أن يأخذ كلام ابن أبي الحديد قضية مسلمة، فهو وإن كان قد أصاب في بعض نقده، إلا أنه تحامل على الرجل في كثير من آرائه، فالناقد يجب أن يكون حكماً عدلا يذكر ما للإنسان وما عليه، وابن أبي الحديد لم يذكر لابن الأثير إلا إنشاءه فقط، وهذا في نظره لا بأس به إلا في القليل النادر، أما جهده كله فقد تتبعه بالنقد والتفنيد.

والذي عابه ابن أبي الحديد على ابن الأثير وقع فيه، وآفة الناقد التعصب والإعجاب بنفسه، وهما أمران لا يقبلهما ابن أبي الحديد، وعلى الرغم من ذلك فإنه يصرح في مقدمته بقوله:

«وكان قصدي في ذلك أن يعلم مصنف هذا الكتاب ورؤساء بلدته أن من أصاغر خول(٢) هذه الدولة الشريفة — فالعجب مبير(٣)، ولا أنبىء

---

(١) ابن أبي الحديد الفلك الدائر. وهو ذيل المثل السائر ج ٤ ص ٣٢. المصدر السابق.

(٢) خول الرجل: حشمه. (٣) مبير: مهلك.

عن نفسى فمثلى كثير — من إذا ألغز أدرى(١) ، وإذا ضرب أفرى(٢)، وإذا رشق أصمى(٣) ، وإذا نـكأ(٤) أدمى ، وأن دار السلام ، وحضرة الإمام ماخلت كما تزعم المواصلة عن إذا سوبق(٥) جلى ، وإذا بوسر(٦) فاز بالقدح المعلى ، وإذا خطب خضعت لبراعته المناصل (٧) ، وإذا كتب سجدت لبراعته الذوابل(٨) ، وإذا شاء علم الناس السحر ، وما أنزل على الملـكين ببابل ، وأن فى الأغفال المغمورين من رعاياها من لو هدر(٩) لقرت له الشائق ، ولو نطق لتجلت بشموسه المهارق(١٠) ، ولو جرد حسام قلمه لقال الملك للسيف : اغرب فأنت طالق ، فـكيف بسدنة(١١) كعبتها ، والحافين بشريف سدتها(١٢) ، فحول البلاغة الذين إذا ركض أحدهم فى حلبة البيـان أخجل البروق ، وسخر بالديباج ، وإذ ضرب الأعداء بصارم اللسان قد السلوق(١٣) المضاعف حتى توقد نار الحباحب فى الصفاح »(١٤)(١٥) .

ومعنى هذا أن الدافع الأول من تأليف هذا الـكتاب هو إفهام المواصلة أن بدار السلام بغداد رجالا عظماء ، وأدباء لايشق لهم غبار ، فهى إذن قضية عصبية العرق والدم ، فالمواصلة — فى رأى ابن أبى الحديد — مهما بلغوا

---

(١) أدرى: أعلم (٢) أفرى: قطع (٣) رشق أصمى : إذا ضرب أصاب.
(٤) نـكأ : جرح (٥) إذا دخل السباق جاء الأول .
(٦) إذا بوسر: أى إذا شرب الخمر مع غيره فاز عليهم ، والبسر خلط البسر مع غيره فى النبيذ . (٧) المناصل : السيوف (٨) الذوابل : الأقلام واحدها ذابلة (٩) هدر الحمام صوت . وقرت له الشقائق : أى طربت به الزهور (١٠) المهارق : الصحف : فارسى معرب (١١) السدنة: الخدام
(١٢) سدتها : خيوطها (١٣) ركض : الركض نوع من الجرى
(١٤) السلوقى : الدرع المنسوب إلى سلوق قرية باليمن .
(١٥) الصفاح : النواحى واحدتها صفح ، وصفحة
(١٦) الفلك الدائر : ذيل المثل السائر حـ ٤ ص ٣٢ المصدر السابق

لن يصلوا إلى ماوصل إليه أهل بغداد ، وهذا عيب خطير قد يدفع الإنسان إلى إرتكاب الشطط فى إبداء المساوىء وإبراز المثالب .

ولأعرض — هنا — لمثال واحد نتبين منه منهج ابن أبى الحديد ونقده لابن الأثير : « قال المصنف وقد غلط مفسرو الأشعار فى إقتصارهم على شرح المعنى ، وما فى الشعر من الكلمات اللغوية ، وتبيين مواضع الإعراب فيه دون ماتضمنه من أسرار البلاغة والفصاحة . أقول : إن مفسرى الأشعار جعلوا قصدهم وكدهم كشف مراد الشاعر ليعلم ؛ ففسروا الألفاظ اللغوية ، وما فى الشعر من إعراب نحوى يتعلق فهم المعنى به ، وتارة يشرحون المعنى فقط إذا لم يكن فى البيت ألفاظ لغوية ، ولا يرتبط المعنى بإعرابه ، كأنهم إنما وضعوا الشروح المصنفة لتفسير مراد الشاعر فقط ، فكل مايذكرونه من زيادة على ذلك مقصودة بالعرض لا بالذات ، وإذا كان الحال كذلك لم يجز أن يقال إنهم غلطوا لإخلالهم بنقد الشعر ، والكلام على مافيه من علم الصناعة الشعرية ، والبحث عن فصاحته وبلاغته ؛ لأن ذلك فن مقرر لم يضعوا شروحهم له وكذلك لم يتكلموا فى العروض والقوافى ودقائق التصريف »(١) .

ولعل القارىء لهذا النقد يدرك مدى تحامل ابن أبى الحديد على ابن الأثير ؛ لأن ابن الأثير يغلط الشراح فى أنهم قصروا شروحهم على الألفاظ والمعانى دون نظر إلى مواطن الجمال فى النص ؛ لأن قيمة الشعر وجلاله لا يستطيع القارىء أن يستمتع بهما إلا إذا أدرك مافى النص من جمال ، وما اشتمل عليه من أسرار البلاغة والفصاحة .

ونظرة ابن الأثير هذه هى التى أخذ بها النقاد المحدثون فى عرضهم للنصوص الأدبية ، وطريقة معالجتها ؛ حتى يعطوا القارىء وجبة شهية وغذاء

---

(١) ابن أبى الحديد . الفلك الدائر ، وهو ذيل المثل السائر ج ٤ ص ٣٩ المصدر السابق .

دسما ، أما أن يشرحوا الألفاظ فقط ، أو المعانى فحسب فهذا أمر لا يعطى قيمة للشعر ، ولا يلقى الضوء على مافيه من أسرار جمالية ، أو عيوب فنية .

هذه المعارك النقدية التى احتدمت فى هذه الفترة من تاريخ أدبنا العربى كان عمادها أولا وأخيراً ما استحدث فى هذا العصر من طرق فنية على يد القاضى الفاضل ومن سار على درب .

ولقد امتدت المعارك النقدية ؛ لتشمل فترات زمنية متلاحقة ، ولتضع للقارىء تراثا نقديا يرشده إلى كثير من القضايا التى عكف أصحابها على خدمة الأدب شعره ونثره، ولعلنا لا نستطيع أن نغفل فى هذا المجال الجهود المشكورة التى قام بها الشيخ صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى الشاعر المنشىء الأديب المتوفى سنة سبع وستين وسبعمائة هجرية ، صاحب كتاب فوات الوفيات ، وكتاب الغيث المسجم فى شرح لامية العجم ، وكتاب نصرة الثائر عى المثل السائر .

وكتاب فوات الوفيات ، وإن يكن كتابا للتراجم التى أهملها ابن خلكان إلا أن شخصية الكاتب تبرز من خلال سطوره ، فإذا تعرض لشخصية من الشخصيات فإنه لا يذكر تاريخها البحت فحسب ، بل يذكر نتاجها الأدبى شعراً ونثرا ، ثم يذكر رأيه فى هذا النتاج ، ومدى مايتمتع به قائله من جودة أو قبح

أما الكتاب الثانى فهو كتاب كتبه شارحا به لامية العجم لمؤيد الدين إسماعيل بن الحسن على الطغرائى المتوفى سنة أربع عشرة وخمسمائة هجرية ، والتى نظمها ببغداد سنة خمس وخمسمائة فى وصف حاله وشكاية زمانه كما جاء فى الصفحة الأولى من كتاب الغيث المسجم نقلا عن كشف الظنون .

لقد اتخذ الصفدى من هذا الشرح مجالا لإبراز نظرياته النقدية ، وسلما يرقى بالشعر من خلاله ، وكما يقول بعض الباحثين « لقد تحول النقد عند نقاد هذا العصر عما كنا نألف فى القرون الأولى ، فقد زال من أذهان هـــؤلاء

تقديس القديم لقدمه فحسب، وغدوا يضعون أدبهم وأدباءهم على قدم المساواة مع إنتاج العصور السابقة وأصحابه ، فلا تتفاوت منازلهم إلا بما يكون لكل منهم من تميز فنى » .

« وقد رأينا الصفدى وهو يقرر أن أدباء عصره قد بلغوا الرجال من خلال مقاييس عصره بطبيعة الحال ، وهى ناحية هامة ترتبت عليها نتائج خطيرة فى حقل التراث الأدبى ؛ إذ بفضلها حفل هؤلاء بنتاج العصر، واهتموا لجمعه ، ووصلت إلينا من صنعه مجموعات من الشعر جمة حملت فى طياتها كل مانتوق إلى كشفه من أحوال « الأدب وغيره عبر قرون متطاولة »(١) .

وقد اتخذ الصفدى لنفسه منهجا عاما يسير عليه فى نقده للنصوص ، فهو يستعرض النص أولا . ثم يعمل فيه فكره شارحا ومحللا ، ثم يعرضه على ذوقه السليم ، ويحكم عليه من خلال هذا التأثر الذى حدث له وإذا نحن سرنا على ضوء موازين النقد الحديث ومدارسه يمكننا إلحاقه — كما يقول : على سلطانى — بالمدرسة التأثرية التى تعتمد فى حكمها على مايحدثه النص عند الإنسان من فاعلية ، ومدى مايجلبه الإنسان من متع فنية ، وهو إزاء ذلك وقف من مدرسة القاضى الفاضل موقفين متغايرين ، فهو حينا ينقد هذه الصنعة التى كبل بها هؤلاء الكتاب والشعراء نتاجهم ، وهو حينا آخر يمدح التورية التى كانت طابعا عاما لمدرستهم .

والصفدى بعد أن يصدر حكمه على النص يقترح صيغة أخرى يراها فى نظره أقرب إلى الصواب ، يقول الصفدى قال ابن الساعاتى .

أبدا يشتت لوعتى تشتيته ويزيدنى ظمأ مدار نظامه

---

(١) محمد على سلطانى : النقد الأدبى فى القرن الثامن الهجرى ص ٢٣٤ . منشورات دار الحكمة — دمشق مطبعة الحجاز ١٩٧٤ .

أما قوله (أبدا يشتت لوعتى تشتيته) فإنه خطأ ؛ لأن اللوعة إذا تشتتت تفرقت أجزاؤها ، وضعفت ، وليس هذا من شكوى المحبة فى شىء ، وكان الأليق أن يقـــول . أبدا يجمع لوعتى ، أو يضم صبابتى ، ولـكن الجناس أذهله »(١) .

ويقول فى نقده لبعض ألوان الجناس التى وقع فيها شاعر الصوفية عمر ابن الفارض — رحمه الله — « والجناس وإن كان من أنواع البديع لـكن بعض صوره مستثقل . كقول ابن الفارض من قصيدة .

أمالك عن صد أمالك عن صد لظلمك ظلما فيـه ميل لعطفة
فرحن بحزن جازعات بعيدما فرحن بحزن الجزع فى لشابتى

فانظر إلى استثقال البيت الأول لما فيه من جناس التحريف فى صدوصد الأول من الصدود ، والثانى أى عطشان ، وفى ظلم وظلم . الأول الظلم بالفتح وهو الريق ، والثانى بالضم وهو الجور مع التقديم والتأخير الذى يحتاج إلى إقليدس حتى يستخرج ترتيبه على خط مستقيم ، والتقدير فيه : أمالك ميل لعطفة عن صد ، أمالك ظلما منك عن صد لظلمك ، فأمالك الأولى مركبة من همزة الإستفهام ، وما النافية ولام الجر وكاف الخطاب ، وأمالك الثانية مركبة من فعل ماض من الإمالة وكاف الخطاب ، وأما البيت الثانى ففيه فرحن : مرتين الأولى الفاء للعطف ، ورحن فعل ماض من الروح لجماعة الإناث ، والثانية فعل ماض من الفرح لجماعة الإناث أيضا ، والراء فى الأولى مضمومة وفى الثانية مكسورة ، وفيه « الحزن » مرتين الأولى بضم الحاء ضد الفرح ، والثانية بفتح الحاء من الأرض ضد السهل ، ولهذه الألفاظ التى عقدها عقد الميزان لأجل الجناس صار كلامه وحشيا من العوام ، بل من بعض الخواص

---

(١) الصفدى : خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدى ، الغيث المسجم ج ١ ص ٢٧١ الطبعة الأولى المطبعة الأزهرية سنة ١٣٠٥ هـ .

الذين لم يتمهروا فى الأدب ، وهذه الأشياء لايخفى على ذى الذوق السليم مافيها من الاستثقال .

ثم يقول : « ولم أقل هذا الكلام جهلا بمقدار الشيخ شرف الدين بن الفارض — رحمه الله — وأنه لم يكن من الفصحاء ، ألا ترى قصائده التى أخلاها من الجناس مثل الميميتين ، والجيميتين واللامية المهموزة وغيرها فما أرقها وأحلاها »(١) .

ولاينسى الصفدى أن ينبه الشعراء إلى استخدام الألفاظ الموحية التى أصبحت حقائق عرفية بعد أن نقلها الشعراء من معانيها الأصلية فيقول : « واعلم أن للشعراء ألفاظا صارت بينهم حقائق عرفية ، وإن كانت فى الأصل مجازا لكثرة دورانها فى كلامهم ، وتعاطيهم استعمالها ؛ لأنهم ألفوا ذلك من تداولها ، وتكرارها على مسامعهم : من ذلك الغصن إذا أطلقوه فهم منه القوام ، والكثيب إذا أطلقوه فهم منه الردف ، والورد إذا أطلقوه فهم منه الريق ، والنرجس إذا أطلقوه فهم منه العيون ، وكذلك السيف والسهم والسحر ، وإذا أطلقوا الآس أو البنفسج أو الريحان فهم منه العذار ، فكل هذه الأشياء انتقلت عن وضعها الأصلى وصارت حقائق عرفية نقلها الاصطلاح إلى هذه الأشياء »(٢) .

وينبه الصفدى الشعراء إلى السرقات الشعرية ، ويقرر حقائق هامة فى ذلك هى أن المعانى لاسرقة فيها ، فالمعانى المألوفة ، والعبارات الشائعة التى تعود الناس سماعها ، وأصبحت بمثابة الأمثال السائرة هذه المعانى لاسرقة فيها ، وقد أصبحت ملكا للجميع ، ولايجوز لأحد أن يدعى اختراعها

---

(١) الصفدى : الغيث المسجم جـ ٢ ص ٣٧ المصدر السابق .

(٢) « « « جـ ١ ص ٢٦٦ « « .

وابتكارها ، وأن المعنى لمن يجيد أداءه ، ويحسن إخراجه والتعبير عنه ، ولا يعيب على أحد استعمال معانى الآخرين ، ولكنه يعيب على من يأخذ معانى الآخرين ويدعى اختراعها ، وأنه لم يسبق إليها .

هذه النظريات وردت فى كتابه الغيث المسجم(١) فى شرح لامية العجم ، فهو بين ثنايا الشرح يعرج دائما على هذه النظريات ، ويلقى الأضواء على أثرها بين المشتغلين بصناعة الشعر أو الكتابة .

وهو لا يقصر شرحه على لامية العجم فقط كما يفعل شراح النصوص ، وإنما يضيف إليها معلومات تدل على ذوق أصيل ، وعلى ثروة أدبية رائعة .

يعرض مثلا لقول ابن سناء الملك :

لها ناظر ياحيرة الظبى إذ رنا به كحل ناداه ياخجلة الكحل

يعلق عليه بقوله : « لو كان لى فى هذا البيت حكم لقلت « لها ناظر ياحيرة الظبى عنده » ، وخلصت من إذ وعدم وضعها للمجازاة »(٢) .

أما كتاب نصرة(٣) الثائر على المثل السائر فقد كتبه الصفدى لمناصرة ابن أبى الحديد الذى تتبع كتاب المثل السائر بالنقد فى كتابه . الفلك الدائر على المثل السائر ...

ويبدو أن الصفدى كان متأثراً بطريقة القاضى الفاضل فى الكتابة ، بل إنه كان معجبا بها ، ومن أجل ذلك جعلها من المثل العليا التى يجب على الأديب ،

---

(١) الصفدى : الغيث المسجم . انظر جـ١ص١٥٨ وغيرها المصدر السابق

(٢) « « « جـ١ص٢٤٣ « « .

(٣) مازال هذا الكتاب مخطوطا يحتوى على مائة ورقة وورقة ، ومنه نسخة بمكتبة الأزهر .

أو الشاعر أن يحفظها ، ويترسم خطاها ، فالكاتب أو الأديب عموما — فى نظره — لابد أن يحفظ القرآن الكريم أولا ، ثم يعكف على مقامات الحريرى ثانيا بالنظر والدراسة ، ثم رسائل القاضى الفاضل ثالثا .

وقد عبر عن ذلك فى مواطن كثيرة من الكتاب ، ومعنى ذلك أنه أراد بكتابه هذا أن يبطل آراء ابن الأثير فى أدب القاضى الفاضل ، وكأن رسائل القاضى الفاضل أكبر من النقد فى نظره ، أو بالأحرى أكبر من أن يدعى رجل مثل ابن الأثير أنه يستطيع أن يكتب رسائل أعظم منها .

وقد اعتمد الصفدى فى كتابه نصرة التأثر — كما يقول(١) مؤلف النقد فى القرن الثامن الهجرى — على أسس ثابتة نجملها فيما يلى :

١ — الأساس التأثرى ، وذلك باستعراض النصوص وفهمها ، وإبداء رأيه فيها أو اقتراح صيغة أخرى تناسب ذوقه كما فعل ذلك عندما عرض لنص فى وصف الأسود الذى عاب عليه بأنه أزعج السامعين ، وكادوا يفرون هربا منه ومن وصفه .

٢ — الأساس الدينى ، وهذا الأساس سار عليه كثير من النقاد المسلمين الذين جعلوا الأدب خاضعا لمقاييسهم الدينية ، وهو فى نظرهم لا يجب أن يخرج عن رسالته السامية ، وقد نعى الصفدى على ابن الأثير عدم بدئه كتابه بحمد الله (٢) والثناء عليه ، وكان يجب عليه ذلك ، ثم لما ورد فى مقدمة

---

(١) هو محمد على سلطانى . النقد فى القرن الثامن الهجرى : منشورات دار الحكمة — دمشق :

(٢) قال : « قال ابن الأثير — سامحه الله تعالى — : نسأل الله أن يبلغ بنا من الحمد ما هو أهله ... أقول : قال رسول الله — ﷺ — كل كلام لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أجذع ، فلو قال : الحمد لله لكان أفضل ، وربما عيب ذلك على الزمخشرى فى أول الفصل كونه قال : الله أحمد ... الخ ... نصرة الثائر ورقة رقم ٥ المصدر السابق

كتابه من مقارنته بكتاب الله تعالى ، وهل يستطيع عاقل أن يقارن ما يكتبه البشر بما يكتبه الله سبحانه وتعالى .

٣ — الأساس الاجتماعى : وذلك بمراعاة أحوال المخاطبين ، فالبلاغة تعنى أن يكون لكل مقام مقال .

وهناك الأساس الثقافى ، والأساس الفنى ، وهو بذلك يستطيع أن يرتفع إلى درجة عليا فى النقد .

فكتاب نصرة الثائر من الكتب النادرة خلال فترة طويلة من الزمن ، وهو من أبرز الكتب فى النقد التطبيقى فى عصر طغت فيه مقاييس البلاغة ونظرياتها ، والتفنن فى الزيادة عليها ، فجاء كتاب الصفدى بالتطبيق المطلق ، ليرفع لواء الذوق ، ويقيم لتأثر المتلقى وتفاعله مع النص وجودا ، ثم ليكون الحكم ناجما عن الموازنة بين النصوص من حيث وفاؤها بالمعنى (١)

يقول الصفدى فى الغيث المسجم عند شرح بيت الطغرائى :

فيم الإقامة بالزوراء لاسكنى بها ، ولا ناقتى فيها ولا جملى

« وما أعرف أحدا ضمن هذا المثل — أعنى — (لا ناقة لى فى هذا ولا جمل) أمكن ولا أحسن من قول الشهاب محمود ، أنشدنى لنفسه إجازة من قصيدة :

استغفر الله أين الغيث منفصلا من بره وهو طول الدهر متصل
من حاتم ؟ عد عنه وأطرح فيه فى الجود لابسوه يضرب المثل
لو مثل الجود سرجاً قال حاتمهم لا ناقة لى فى هذا ولا جمل

أنظر إلى قلقه فى بيت الطغرائى ، لأنه عطف الناقة والجمل على السكن ولو

---

(١) محمد على سلطانى ، النقد الأدبى فى القرن الثامن ص ٣٣٥ المصدر السابق .

عطف ما يناسب ذلك من أهل وولد لكان أحسن وأوقع فى النفس ، وانظر إلى دوره فى أبيات الشهاب محمود ، فإنه جاء فى مكان منسجم التركيب ثابتا فى معناه ، حتى كأنه ما برز إلى الوجود إلا فى هذا المكان ، ولا ظهر إلا فى هذا القالب ، ولست أنكر أن الناس قد ضمنوه كثيرا فى أغراض مختلفة طلبا للتنوع عما ينتفى الإنسان عنه ، ولكن كلما كان الكلام أكثر ارتباطا ، وتعلقا فى أجزائه كان أحسن ،(١)

وهكذا يأخذ الصفدى فى الموازنة بين النصوص ، وإظهار ما يتحلى به كل نص ، ثم إبداء رأيه المعتمد على ذوق فنى راق ، وعلى مقدرة فائقة على التحليل والتوجيه دون النظر إلى عصر معين ، أو قائل بذاته .

ابن حجة الحموى

ونختم جولتنا السريعة هذه بناقد آخر ختمت به الدراسات النقدية بهاءها وجمالها ، ذلكم هو تقى الدين أبو بكر على المعروف بابن حجة الحموى صاحب كتاب « خزانة الأدب وغاية الأرب » المولود فى حماة سنة سبع وستين وسبعمائة ، والمتوفى سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة هجرية ،(٢)

وكتاب خزانة الأدب ألفه ابن حجة الحموى شارحا به بديعيته (٣) التى جمع فيها كل ألوان البديع على عادة عصره ، ولا نريد هنا التعريف بالبديعيات ،

---

(١) الصفدى . الغيث المسجم ١/١٥٨ . المصدر السابق .

(٢) مقدمة خزانة الأدب . ط المطبعة العامرية ١٢٩٠ هـ القاهرة

(٣) البديعيات لون من النظم نشأ فى العصور المتأخرة له هدفان : هدف دينى ، وآخر تعليمى ، أما الهدف الدينى فهو مدح رسول الله — ﷺ — بأبيات شعرية ، وأما الهدف التعليمى فهو حصر جميع ألوان البديع وذلك بذكر لون بديعى فى كل بيت من أبيات البديعية .

وسبب إنشائها وتأثرها وتأثيرها — فذلك له جولة خاصة وبحث مستقل نعرض له إن شاء الله .

ولكننى أريد الإلمام بمنهج ابن حجة فى النقد ، والذى جاء من خلال شرحه لبديعيته التى جمعت نحوا من اثنين وأربعين ومائة نوع من البديع ، والتى التزم فيها منهجا خاصا هو أن يعرض للنوع البديعى الذى ضمنه بيتا من البديعية وأشار إلى اسمه فيه فيعرفه تعريفا بلاغيا ، معتمدا فى ذلك على أمهات كتب البلاغيين ، ولا يقتصر فى أحيان كثيرة على تعريف واحد ، بل يورد أكثر من تعريف توضيحا للنوع ، ويوازن أحيانا بين التعارف ويرجح ويعلل كل هذا فى أسلوب الأديب السمح الذى نحس عنه خشونة العلم وصلابة التعاريف مع تزويده بلطائف الذوق الناقد .(١)

ثم يسوق ابن حجة أمثلة على النوع تطبيقية ، ويسجل بيت بديعيته ، وما يقابله من غيرها ، وقد استكثر من الأمثلة الشعرية فى بعض الأبواب حتى تحولت إلى دواوين فى بابها ، نرى ذلك فى باب براعة الاستهلال وباب الجناس ، وباب السجع والتورية والإبداع ، ويعلن عند إيراد المثال عن رأيه مستجيدا ، أو مستقبحا ، وكثيرا ما يعلل لذوقه هذا ، غير أنه تشوبه أحيانا المبالغة فى المدح عند الاستجادة ، والمبالغة فى القدح عند الاستقباح .

وكثرة الأمثلة فى خزانة الأدب من أهم مميزاتها التى تسمو بها على كثير من كتب النقد والبلاغة التى وقفت عند أمثلة بعينها .

وبهذه الكثرة من الشواهد ، وبهذه النزعة من النقد : وبهذا الحسن فى العرض نستطيع أن نقول : إن خزانة الأدب ، مرحلة هامة من مراحل النقد

---

(١) محمود رزق سليم . تقى الدين ابن حجة الحموى ص ٣٩ ط دار المعارف ١٩٦٢ . سلسلة نوابغ الفكر العربى

الأدبي وعلم البلاغة ، ولكن أغفلها كثير من المحدثين، وفى الكتاب خصوصية ليست فى سواه ، وهى عناية المؤلف بالإكثار من الأمثلة والشواهد من شعر شعراء مصر والشام ، وبخاصة شعراء العصر المملوكي ، والشعراء المعاصرين للمؤلف ومن شعره ، فأصبح كتابه سجلا حافلا بنصوص أدبية قد لا تظفر بها فى سواه ، وهو بذلك يعين على تصور الحياة الأدبية فى عصر المؤلف .

وللمؤلف لازمة يندر أن تفارقه ، وهى التقديم أو الاستطراد عند تسجيل الشواهد ، فيمهد لها ، أو يعقب عليها بأخبار تاريخية ونوادر أدبية تتصل بها عظيمة القيمة فى تاريخ الأدب ، وبخاصة تاريخه المعاصر للمؤلف مما يعتبر جديداً فى بابه (١)

ويعتبر هذا السفر الضخم أهم كتاب ألفه ابن حجة ، وخاتمة كتب البلاغة والنقد التى أعادت إليها بشاشة الأدب ، حتى نهض النقد فى العصر الحديث ، وقد فرغ المؤلف منه فى ذى الحجة عام ستة وعشرين وثمانمائة هجرية . (٢)

أما نظرة ابن حجة إلى الشعر فى عصر الأيوبيين والمماليك فإنه كثيرا ما يعجب بالبهاء زهير ومن سار على دربه ، أما مدرسة القاضى الفاضل فإنه وقف منها موقفين متناقضين — أيضا — كما ذكرت ذلك عند الصفدى.

ذلك أنه نظر إلى الجناس الذى سيطر على كثير من شعراء هذه المدرسة نظرة كلها رفض لمثل هذا اللون من تشقيق الكلام وعقادته فقال : « أما الجناس فإنه غير مذهبي ومذهب من نسجت على منواله من أهل الأدب ،

---

(١) محمود رزق سليم — تقى الدين ابن حجة الحموى ص ٠ ٤ المصدر السابق

(٢) » » » » » » » ٤١ » »

وكذلك كثرة اشتقاق الألفاظ فإن كلا منهما يؤدى إلى العقادة والتعقيد عن إطلاق عنان البلاغة فى مضمار المعانى المبتكرة »(١)

ويقول معرضا ومنددا بمن أغرموا بالجناس، واصفا لهم بأنهم عاجزون عن اختراع المعانى، ومن أجل ذلك لجئوا إلى هذا اللون من التجنيس: « ولم يحتج إليه — أى الجناس — بكثرة استعماله إلا من قصرت همته عن اختراع المعانى التى هى كالنجوم الزاهرة فى أفق الألفاظ ، وإذا خلت بيوت الألفاظ من مكان المعانى تنزلت منزلة الأطلال البالية (٢)

ولكن هذه النظرة تتغير تغيرا تاما عندما يتحدث عن التورية، فنجده يتيه بها عجبا، ويتطاول بها على المتقدمين، بل يرميهم بالقصور فيها، وأنها عندما تأتى فى كلام أحدهم فإنما هى رمية من غير رام، وكأنه يحث شعراء عصره وكتابه على أن يعملوا فيها تفكيرهم، وأن يتفكهوا فى أدواح الأدب بثمراتها، فهو يقول: « إن التورية عند علماء الفن بمنزلة الإنسان من العين وسموها فى البلاغة سمو الذهب على العين، وقد ثبت أن خواطر المتقدمين كانت بها شحيحة، وأفكارهم لا تقصد مظانها، وإن كانت سليمة صحيحة، ولكنها ربما وقعت لهم عفوا من غير مرام. فنقول إنها رمية من غير رام، وقد علم أن المتأخرين من الفاضل إلى من فضل بعدهم نور مشكاتها، والمتفكهون فى أدواح الأدب بثمراتها »(٣)

لقد استطاع ابن حجة الحموى — فعلا — أن يجعلنا نعيش فى دوحته الفينانة نقطف ثمارها، ونشم عبقها، ونتنقل بين أزهارها ورياحينها.

---

(١) ابن حجة الحموى خزانة الأدب ص ٢٥ المصدر السابق

(٢) ابن حجة الحموى خزانة الأدب ص ٢٦ المصدر السابق

(٣) ابن حجة الحموى خزانة الأدب ص ٢٩٨ المصدر السابق

ولقد كان ابن حجة دليلا قويا على أن النقد - فى عصره - لا يقل أثرا عن النقد فى عصور القوة التى جذبت النقاد المحدثين فأهملوا ما عداها ، ولم ينظروا فى سواها . فحكموا حكما جائرا على فترة زمنية كان النقد فيها له أثره الواضح ونهجه القويم .

وبعد فهذه نظرة سريعة ألقيت فيها الضوء على الدراسات النقدية التى قامت إثر ظهور القاضى الفاضل ، وما ابتكره من طرق فنية جذبت إليها الكتاب والشعراء ، ولكن البحث العلمى المتريث يحتاج إلى إفراد كل علم من أعلام هذا البحث بدراسة مستقلة نعرض فيها إلى ما كتبه ، ونميط اللثام عن جهده فى مجال الدراسات النقدية وسيكون البحث المقبل خاصا بابن الأثير وكتابه « المثل السائر » .

هذا وبالله التوفيق .

(للبحث بقية)

د. عبد المنعم أحمد يونس
مدرس الأدب والنقد بالكلية